﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣﴾ [الممتحنة: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن خَطَرِ الدُّنيا إلى خَطَرِ الآخرة، ومِن خَطَرِ الأباعِدِ إلى خَطَرِ الأقارِب

لمّا بيَّنَ في الآية السّابقة ما يَوَدُّه الكافرون من كفرِ المؤمنين وردَّتِهم، وما يَكتُمونه في قلوبهم من سوءِ المَكايِدِ ناسَبَ الانتقالُ إلى التَّصريحِ بنَفْيِ أن ينفعَ المؤمنَ أيُّ شيءٍ سوى دينه في الآخرة؛ لِما قد يظنُّه المؤمنون من نفعِ الأرحام والأولاد، فهو انتقالٌ من نَفْيِ منافعِ الكافرين في الدّنيا، إلى نَفْيِ منافعِ الأرحام والأقارب في الآخرة، وهو كذلك انتقالٌ مناسبٌ من الحديث عن أعداءِ الخارج إلى الحديثِ عن أعداءِ الدّاخل من الأرحام والأولاد.

ويُذكرُ في المناسبة أيضًا: أنّه لمّا ذكر الله تعالى عاقبةَ موالاةِ أعداء الله والمؤمنين في الدّنيا بأنَّه قد ضلَّ سواءَ السّبيل تخلَّصَ مِنْ تَبْيينِ سوءِ عاقبتهم في الحَياةِ الدُّنْيا، إلَى بَيانِ سوءِ عاقِبَةِ تِلْكَ الموالاةِ في الآخِرَةِ، ومُناسَبَةُ حُسْنِ التَّخَلُّصِ قوله: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ الدّالُّ على مَعْنَى: أنَّ ودادَتَهُمْ كُفْرَكُمْ مِنْ قَبْلِ أنْ يَثْقَفوكُمْ تَنْقَلِبُ إلَى أنْ يُكْرِهوكُمْ على الكفرِ حين يَثقَفونكم، فَلا تنفعُكم أرْحامُكُمْ مِثْلُ الأُمَّهاتِ، والإخْوَةِ الأشِقّاءِ وللأُمِّ، ولا أوْلادُكُمْ، ولا تَدْفَعُ عَنْكُم عَذابَ الآخِرَةِ إنْ كانوا قَدْ نَفَعوكُمْ في الدُّنْيا بِصِلَةِ ذَوي الأرْحامِ ونُصْرَةِ الأوْلادِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَفۡصِلُ﴾: يدورُ معنى كلمة (فصل) على تمييز الشّيءِ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.

الشّيءِ وإبانتِه عنه حتَّى يكونَ بينهما فُرجةٌ[1]. وأصل الكلمة من الفصيل الَّذي هو ولدُ النّاقة إذا افتُصِلَ عَن أُمِّه وعن لَبَنِها[2]. ومنه الفِصالُ: التَّفريق بين الصّبيّ والرّضاع، وتفصيلُ الشّيء: تبيينُهُ بجَعْلِهِ فُصولًا مُتمايزةً في أجزائِه واضحةً في جُزَيّاتِه[3]. وفَصَل بين الخصمين: حَكَم لأنَّه ميَّزَ بين المُحِقِّ والمُبطِل منهما. ومعنى ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾: يفرِّقُ بين المؤمن والكافر وإن كانوا أولي أرحامٍ؛ فيدخلُ المؤمنون الجنَّة ويدخلُ الكافرون النّار[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

رَوابِطُ الدّينِ أقوى وألزَمُ مِن رَوابِطِ النَّسَب

بَيَّنَتِ الآيةُ الكريمة أنَّ الأهلَ والأولادَ الَّذين لأجلهم يُناصِحُ المؤمنون المشركين ويوالونهم لا ينفعونهم شيئًا؛ فلا يَدْعوَنَّكم أرحامُكم وقراباتُكم وأولادكم إلى الكفر باللّه؛ فإنَّه لن ينفعَكم قراباتكم ولا أخصُّ منهم، وهم أولادكم الَّذين توالون المشركين لأجلِهم، يومَ القيامة يَفصِلُ بينكم ويفرّق بينكم، فيدخلُ أهلُ الإيمان الجنَّة، ويدخلُ أهلُ الكفر النّار، واللّه بجميع أعمالِكم الَّتي تعملونها بصير[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ الفَصْلِ بينَ الجُمَل:

الاستئنافُ البيانيُّ بيانٌ شافٍ للسّائلِ، وتعليلٌ مُكتمِلٌ للمُستعلِم

فُصِلَتْ جملةُ ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ﴾ عن الكلامِ السّابقِ؛ لأنَّها مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤالٍ مفروضٍ ممَّن يَسمَعُ جملةَ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ أي: مِن حقِّ ذلك أن يُسأَلَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فصل).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (فصل).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فصل).
(4) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 14/ 383، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 205.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 316.

عن آثارِهِ لخَطَرِ أمرِها[1]. وإذا كانَ ناشِئًا عَنْ كَلامٍ جَرَى مَجْرَى التَّعْليلِ لِجُمْلَةِ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فَهوَ أيْضًا مُفيدٌ تَعْليلًا ثانيًا بِحَسَبِ المَعْنَى، ولَوْلا إرادَةُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ لَجاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ مَعْطوفَةً بِالواوِ على الَّتي قَبْلَها، وزادَ ذَلِكَ حُسْنًا أنَّ ما صَدَرَ مِنْ حاطِبِ بْنِ أبي بَلْتَعَةَ مِمّا عُدَّ عليه هوَ موالاةٌ لِلْعَدوِّ، وأنَّهُ اعْتَذَرَ بِأنَّهُ أرادَ أنْ يَتَّخِذَ عِنْدَ المُشْرِكينَ يَدًا يَحْمونَ بِها قَرابَتَهُ[2]، فكان ذلك تعليلًا لِما سبق؛ بأنَّ هذه الأرحامَ والأقاربَ لن تنفعَ عند الله شيئًا يومَ القيامة.

فائدةُ النَّفْيِ وغرضُهُ:

أوْهـامُ العُقولِ هـي المُـزهِـقـةُ لأرواحِ القُلوب

لمّا كان النَّفْيُ يُؤتى به لدفع إثباتٍ قد يُتَصوَّرُ صُدِّرتِ الجملةُ بنفيِ نفع الأرحام والأولاد لمَن يوادّون المشركين من أجلِهم؛ لِدفع ما عسى أن يَتخيَّلوا كونَه عذرًا نافعًا من أنَّ الدّاعيَ للاتِّخاذ وإلقاءِ المودّة صيانةُ الأرحامِ والأولاد مِن أذى المشركين[3].

نكتةُ استعمالِ مُفردةِ النَّفْع:

حقيقةُ ما يَجولُ فـي النُّـفـوسِ هـو البحثُ عن نَفْعِها لا نَفْعِ غيرِها

آثَرَ النّظمُ الكريم نفيَ مُفردةِ النَّفعِ الَّذي هو خلافُ الضُّرِّ يومَ القيامة على مُقارباتها باعتبارِ ما استقرَّ في أذهانِ بعضِ المؤمنين من أنَّ الأرحام والأولاد تنفعُ أصحابها، فجاء نفيُ النّفع بهذا الاعتبار، وهو ما يدلُّ على أنَّ الإنسان إنّما يبحثُ عن نفعه لا نفعِ غيره، فهو تلميحٌ لِما يَجولُ في النّفس، كأنّه قيل: إذا ظننتُم أنَّ أرحامكم وأولادكم تنفعُكم فالأمرُ على ضدِّ ذلك، فلن تنفعَكم يوم القيامة، ويُحتمَلُ أن يكون نفيُ النّفع باعتبارِ تنزيل المخاطَب منزلةَ مَن يظنُّ ذلك؛ فيكون تحذيرًا وتنبيهًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 263.

بلاغةُ التَّعبيرِ المَجازيِّ في لفظِ الأرحام:

الأرحـــامُ هـم الأقرِباءُ مِن جِهَةِ الأُمِّ؛ لأنَّهـــم خـارِجـون مِـن رَحِمٍ واحدة

المرادُ مِن الأرحام في قولِه تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ ذَوو الأرحام[1]؛ أي: أصحابُها، فهو على حذفِ مضافٍ بقرينةِ السّياق، والمقصودُ بذوي الأرحام الأقرباءُ، واستُعيرَ الرَّحِمُ للقرابة؛ لكونِهم خارجين من رَحِمِ امرأةٍ واحدة[2]. وذُكرت الأرحامُ هنا لموافَقةِ قِصَّةِ حاطِبٍ؛ فقد كان في مكَّةَ حينَها أمُّه وإخوتُهُ؛ لأنَّ الأمَّ ذاتُ رَحِمٍ، والإخوةُ أبناؤها هم إخوةُ حاطبٍ من رَحِمِه[3]، وهذا من التَّعبيرِ المَجازيِّ بغرضِ الإيجازِ اللَّفظيّ.

دلالةُ النَّفْيِ بالأداةِ ﴿لَن﴾:

الـوَلاءُ لا يكونُ إلّا للنّافِعِ الضّارِّ يومَ القيامة

استعمَلَ النّظمُ الكريم أداةَ النّفي ﴿لَن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ الَّتي هي لنفيِ المستقبَلِ نفيًا مؤكَّدًا، ولمّا كانت الأداةُ ﴿لَن﴾ نقيضَ (سوف) في الإثباتِ جاءَ نفيُ نفعِهم يوم القيامة على سبيلِ الاستدلال لإقناعِ المؤمنين؛ بمعنى: إذا كانَتْ أرحامُكم وأولادكم لن تنفعَكم يوم القيامة فما لكم تَرفُضون حقَّ الله وتوالون عدوَّ الله مراعاةً لحقِّ مَن يَفِرُّ منكم غدًا[4]؟!.

توجيهُ تخصيصِ عدمِ نَفْعِ الأرحامِ بالذِّكر:

الأرحـــامُ لا تَـنـفَـعُ، فكيف بالأموالِ الباطلةِ والـسُّـلـطـانِ الجائر؟.

خَصَّ النّظمُ الكريم نفيَ نفع الأرحام بالذّكر؛ لأنَّ الأرحامَ لمّا كانَتْ مشتقَّةً من الرَّحم المُقتضي للعطف والرّحمة واللّين كان ربَّما يُتوهَّمُ أنْ يكون لها سببٌ في إيصال الخير ودفعِ الضُّرّ؛ فلمّا نفى النّفعَ بها دَفَعَ هذا الوهمَ، ونفى ما هو أبعدُ من مُقتضَى النّفع من المالِ والجاهِ والسُّلطان، فهو من التَّنبيه بالأقربِ إلى الأذهان في النَّفع على الأبعدِ.

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 268.
(2) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.
(4) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 513.

سببُ تقديمِ الأرحامِ على الأولاد:

البَدْءُ بالأسبَقِ وُجودًا والأقوى عَطْفًا

ابتُدِئَ في نفي النَّفع بذكر الأرحام؛ لموافقةِ قصَّةِ حاطبٍ؛ لأنَّ الأُمَّ ذاتُ رَحِم، والإخوةُ أبْناؤُها هُمْ إخْوَتُهُ مِنْ رَحِمِهِ[1]، وليكونَ البدءُ بذكر الأعمِّ أوقَعَ وأقطَعَ في نفي نفعِ أيِّ رحمٍ يوم القيامة، فبَدَأَ بالأسبَقِ وُجودًا، ثمَّ ثنَّى بمَن يَليهم من الأولاد.

بلاغةُ التَّتْميمِ في عطفِ الخاصِّ على العامّ:

الأولادُ أخصُّ قَراباتِ الأرحامِ وأقربُ المَظْنونِ بهم فائدةً

عطفُ الأولادِ على الأرحام في قوله تعالى: ﴿أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ من بابِ التَّتْميم في الخطاب؛ للإيضاح والبيان، وهو من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، وخُصَّ الأولادُ بالذِّكر مَعَ دُخولِهِمْ في الأرْحامِ لِمَزيدِ المَحَبَّةِ لَهُمْ والحُنوِّ عليهمْ، كأنَّه قيل: لن تنفعَكم جميعُ قراباتِكم وإنْ كانوا أولادَكم الَّذين هم أخصُّ قراباتِكم يومَ القيامة. ومن فوائدِ تخصيص الأولاد بالذِّكر شمولُ النَّهي عن الإلقاء إلى الكافرين بالمودّة قومًا لهم أبناءٌ في مكَّةَ في وقت نزول الآية[2].

دلالةُ إضافةِ الأرحامِ والأولادِ إلى ضميرِ الخِطاب:

إضافةُ الأرحامِ بمعنى اللّام، وإضافةُ الأولادِ بمعنى (مِن)

أُضيف لفظُ الأرحام والأولاد إلى ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾، فإضافةُ الأرحام بمعنى اللّام؛ أي: أرحامٌ لكم، وإضافةُ الأولادِ بمعنى (مِن)؛ أي: أولادٌ منكم.

بلاغةُ التَّلميحِ والإيماء:

لا نافعَ يومَ القيامةِ إلّا الله

لمّا أخبر الله تعالى أنَّه لن تنفعَ الأرحام والأولاد يوم القيامة لمَّحَ إلى النّافع الحقيقيِّ، وهو الله تعالى، وأنَّ مَن عصى اللّهَ تعالى وأطاعَ هواه فقد استحقَّ الويلَ والثُّبور.

بلاغةُ توجيهِ تعلُّقِ الظَّرفِ في المعنى البيانيّ:

يَحتملُ ظرفُ الزّمان ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أن يكونَ مُتعلِّقًا بالفعل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 142.

أغـــــــراضُ الاستـئـنـافِ والإيـــجـــازِ في ثَـنـايـا تـوجـيـهِ تعليقِ الظُّروفِ بالأفعال

﴿تَنفَعَكُمۡ﴾ فيكون معمولًا له، ويَحتمِلُ أن يكونَ مُتعلِّقًا بالفعل ﴿يَفۡصِلُ﴾[1]، ويحتملُ أن يكون جاء على سبيل التَّنازُعِ بين العاملين ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ﴾ و﴿يَفۡصِلُ﴾[2]؛ لأنَّ الظَّرفَ لا يُشترَطُ في عامِلَيهِ المُتنازِعَينِ أنْ يتقدَّما عليه على قولِ بعضِهم.

ويترتَّبُ على ذلك أنَّه إن كانَ الظّرفُ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ متعلِّقًا بالفعل ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ﴾ وُقِفَ على ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وابتُدِئَ بما بعدَهُ، وتكونُ جملةُ ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ استئنافًا لبيانِ سببِ عدمِ نفعِ الأرحامِ والأولادِ يوم القيامة، فكأنَّه قيل: لِمَ لن تنفعَ الأرحامُ والأولاد يوم القيامة؟ فأُجيبَ: لأنَّ اللّه تعالى يَفصِلُ بينَ النّاس في ذلك اليوم، فيقدَّرُ ظرفٌ محذوفٌ مع الفعل ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ دلَّ عليه المذكور، فيكون الحذفُ للإيجاز[3]، والمعنى: يُفرِّقُ اللّه بينَكم بما اعتراكُم من الهولِ الموجِبِ لفرارِ كلٍّ منكُم من الآخَرِ حسبَما نطَقَ به قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾ [عبس: 33 - 36]، أو يُفرِّقُ اللّه بينَكم فيَجعلُ فريقًا في الجنَّة وفريقًا في السَّعير، فما لكم ترفُضونَ حقَّ اللّه تعالى وموالاتَهُ لمراعاةِ حقِّ مَن لا ينفعُكم يوم القيامة؟!.

وإن كان الظّرفُ مُتعلِّقًا بالفعل ﴿يَفۡصِلُ﴾ كان الوقفُ على ﴿أَوۡلَٰدُكُمۡۚ﴾، ويكونُ قولُهُ: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ استئنافًا لبيانِ سببِ عدم نفعِهم؛ أي: عدمُ نفعِهم إنّما يظهرُ في وقتِ الفصلِ بينكم يومَ القيامة[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 154.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.

(3) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 294، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 236، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 251، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.

(4) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 513، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 205، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 467.

دلالةُ ذكرِ الظَّرف:

بيانُ زَمَنِ ظُهورِ عدمِ النَّفْع

أفادَ ذكرُ ظرف الزّمان ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تقييدَ عدم النّفع في ذلك اليوم؛ أي: أنَّ ظهورَ عدم النّفع وتقريرَ المصير إنّما يكونُ في الآخرة لا في الدّنيا.

سرُّ استعمالِ لفظةِ ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

كم مِن بَهْجَةٍ دامَتْ هناك، وكم مِن مُهْجَةٍ ذابَتْ عندَ ذاك

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ التّركيب الإضافيِّ العَلَميِّ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ دون بقيَّة الألفاظ الدّالَّةِ على هذا اليوم المَهيب، وذلك أنَّه الاسمُ العَلَم، الجامعُ للصِّفات الكثيرة كالبعث، والنَّشر، والحشر، والجزاء، والحساب، فهو الأصلُ في الذِّكر، كما أنَّه يومئُ إلى لحظةِ قيام النّاس من قبورِهم لله ربِّ العالمين[1] إلى لحظةِ قيامِهم في دار الخُلْد، فلجميعِ هذه المعاني المقتضية لتهويل الموقف والتّنبيهِ عليها كان ذكرُهُ الأنسبَ من غيرِه.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿يَفْصِلُ﴾:

يمتازُ الأسلوبُ القرآنيُّ بالمعاني الوَفيرةِ والألفاظِ الوَجيزة

آثر النّظم الكريم استعمالَ مفردة الفصلِ في قوله تعالى: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾؛ لاحتمالِها معنى التّفريق بين الأقارب ومعنى القضاء بينهم، وذلك أنَّ هذا الفعلَ يَحتمِلُ في السّياق معنى: يُفرِّقُ بينكم وبين ذوي أرحامكم وأولادكم بعدَ الجمع يومَ الحشر[2]، وذلك بما يكونُ من الهول الموجِبِ لفرارِ كلٍّ منكم من الآخر. وعبّر بفعل ﴿يَفْصِلُ﴾ دون (يُفرِّقُ)؛ للإشعار بالفُرقة العظيمة الَّتي يكون فيها انقطاعُ جميعِ الأسباب إلّا سببَ الإيمان، فيُفرَّقُ بين الوليِّ والعدوِّ، والمؤمنِ والكافر، والموحِّد والمشرك، فالفصلُ على سبيل التَّمييز والإبانة، بحيث يَبينُ كلُّ فريق عن الآخر؛ ففريقٌ في الجنّة، وفريق في السّعير[3].

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصفهاني: 3/ 1372، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/ 305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.

ويُحتمَلُ أن يكون الفعلُ ﴿يَفۡصِلُ﴾ على معنى القضاء؛ أي: يَقضي بينكم؛ فيَحكُمُ بالجزاء بالجنَّة لأهل طاعتِه من المؤمنين وأوليائِهم، وبالنّار لأهل معصيتِه من الكافرين وأعوانِهم.

والخلاصةُ: أنَّ الفصل إمّا أن يكونَ بمعنى الحُكمِ بينهم، أو مِن الفصل بمعنى التّفريق[1].

توجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّة:

تنـوُّعُ القِـراءاتِ إثــراءٌ للمعنى وتكثيرٌ للدَّلالة

اختَلَفَ القرّاء في قوله تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾؛ فقرأ عاصمٌ ويعقوبُ: ﴿يَفۡصِلُ﴾ بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصّاد، وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو: ﴿يُفۡصَلُ﴾ بضمِّ الياء وفتح الصّاد خفيفةً، وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿يُفَصَّلُ﴾ بضمِّ الياء وفتحِ الصّاد مشدَّدةً، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بضمِّ الياء وكسرِ الصّاد مشدَّدةً[2]. وقد دلّتْ كلُّ قراءةٍ على معنًى لطيفٍ، ودلالةٍ بديعة، اجتَمَعَتْ في التّصريحِ بالفاعل ضميرًا، وحذفِه للعلم به، والتَّخفيفِ للدَّلالة على الحكم النِّهائيِّ، والتَّشديدِ لبيان توزيعِ القضاء على النّاس في ذلك اليوم.

بلاغةُ الاحتِجاجِ بذِكْرِ التَّقْسيم الحاصِر:

إقـامـةُ الحُـجَّـةِ على العبادِ مِن تَـمـامِ الحُـجَّـةِ عـلى رأفــةِ ربِّ العِباد

جاء قولُه تعالى ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ مُتمِّمًا للشّرطِ وجزائِه في قوله تعالى: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ فتكونُ الآيتان من قَبيلِ التّقسيم الحاصر، حيث خطَّأ رأيَهم أوَّلًا في موالاةِ مَن هو خالصُ العداوةِ لهم بما يَرجِعُ إلى حال مَن والوه مِن العداوةِ وبسطِ الأيدي والألسُن بالسّوء، ثمَّ خطَّأ رأيَهم ثانيًا فيمَن يوالون العدوَّ لأجلِه؛ أي: بما يَرجِعُ إلى حال مَن اقتضى تلك الموالاةَ، وبيَّن أنَّ مرجعَ حال قراباتهم وأولادهم الَّذين يوالون

(1) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 365.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 39، وابن الجزري، النّشر: 2/ 387.

الكفار مِن أجْلِهم أنَّهم لا ينفعونهم يوم القيامة، ويفرّون منهم[1]، فقال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾؛ ليُرِيَهم أنَّ ما أقدَموا عليه مِن موالاةِ أعداء الله مِن أيِّ جهةٍ نَظَرْتَ فيها وجَدْتَها باطلًا[2]. وهذا طريقٌ في الحِجاج بليغٌ؛ ليَرُدَّ على جميعِ ما يتحجَّجُ به مَن يتَّخِذُ عدوَّ الله أولياءَ.

بلاغةُ النَّظْمِ بينَ الإيجازِ بالحَذْفِ وعَدَمِه:

احتمالُ أنْ يكونَ الخِطابُ لعُمومِ النّاس فلا حذفَ، أو للمُخاطَبين فالحذفُ

اكتفى النَّظمُ الكريم بذكرِ ﴿بَيْنَكُمْ ۚ﴾، دون أن يذكرَ ظرفَ الطَّرَفِ المقابلِ؛ أي: (وبينَهم)، فإمّا أنْ يكونَ الكلامُ محمولًا على الإيجازِ بالحذف اكتفاءً بقرينة المقام، وتقديرُ الكلام: يَفصِلُ بينَكم وبينَهم؛ أي: بينَكم وبينَ أقاربكم وأولادكم[3]، ونكتةُ الحذفِ الإشارةُ إلى قوَّةِ سببِ لُحمةِ القَرابةِ، فكأنَّهم شيءٌ واحدٌ، ومع هذا فإنَّه تعالى يفصلُ بينَكم في إشارةٍ إلى أنَّ سببَ الإيمان أقوى وأثبتُ وأنفعُ.

وإمّا أن يكون الكلامُ محمولًا على الالتفات، ولا حذفَ للظَّرفِ حينئذٍ؛ أي: إنَّه لمّا كان الخطابُ للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ﴾ عدَلَ إلى خطاب النّاس جميعًا؛ لمَقامِ يوم القيامة الَّذي يكون فيه الحشرُ لجميع النّاس، فقال: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾؛ أي: يفصل بينكم أيُّها النّاسُ جميعًا.

ففي الخطابِ بضميرِ الجمعِ مبالغةٌ في التّهديد والوعيد لِمن يُلقون إلى الكافرين بالمودَّة؛ فكيف بالكافرين أنفُسِهم؟.

وإمّا أن يكونَ الخِطابُ ابتداءً بقوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾ لجميع النّاسِ، فيكون الالتفاتُ من بدايةِ الآية، لا من قوله تعالى: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾، فلا حذف على هذا التَّوجيه.

(1) الطّيبي، حاشية على الكشاف: 15/ 355.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 513، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 142.
(3) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 467.

دلالةُ التَّذييلِ في الفاصِلة:

اجتِماعُ الوَعْدِ والوَعيدِ في جُملةٍ واحِدة

جاءَتْ جملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ جملةً تذييليَّةً؛ لتفيدَ معنًى كلّيًّا مع اتّصالِها بما قبلَها، والمعنى: واللّهُ بما تعملون بَصيرٌ فيُجازيكُم بعملِكم[1]؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، فالجملةُ على معنى الوعيدِ والوعد[2].

علَّةُ إظهارِ ما حقُّهُ الإضمار:

لكلِّ مَقامٍ مَقال

ما يَقتضيهِ ظاهرُ النّظم إضمارُ اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، لكنَّه عدَلَ إلى الاسم الظّاهر الدّالِّ على إظهار عُنوانِ الألوهيَّة؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ ترهيبٍ ووعيد.

فائدةُ الاسمِ الموصول:

الدَّلالةُ على مُراقبةِ عُمومِ الأعمال

أفادَ التّعبيرُ بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الدَّلالةَ على العموم، وقَرَّرَ هذا العمومَ وقوّاهُ حذفُ الضّمير العائدِ في الفعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، فاللّهُ تعالى بصيرٌ بكلِّ ما يعملُه العباد، ومجيءُ الاسم الموصول دالًّا على العُموم مناسبٌ لكونِ الجملة تذييليَّةً.

غرضُ تقديمِ القَيْدِ على المُسنَد:

العملُ هو مَناطُ الفَصْلِ والجَزاءِ يومَ القيامة

قُدِّمَ ذكرُ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ على الخبرِ ﴿بَصِيرٌ﴾، فلم يقل: (واللّه بصير بما تعملون)، وغرضُ تقديم القيدِ التّنبيهُ على مزيدِ الاعتناء بما يعملُهُ العباد؛ بمعنى: أنَّ الأعمالَ هي مَناطُ الفصل بين النّاس، وهي الَّتي يكون عليها الجزاءُ يوم القيامة، فليس في التّقديم معنى التّخصيص؛ لأنَّه تعالى بصيرٌ بالذّوات وبأعمالِها وبكلِّ مخلوق.

توجيهُ تخصيصِ صفةِ ﴿بَصِيرٌ﴾ بالذِّكر:

آثر النّظمُ الكريم اختيارَ صفة البصيرِ دونَ الخبير والعليم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 236.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 142.

ونحوِهما، والكلامُ عن علمِ الله تعالى بخَفايا ما يُسِرّون؛ فيُسألُ عن سرِّ استعمالِ هذا الاسم دون غيره؟ والجوابُ: أنَّ أعمالَ العبادِ ظاهرةٌ وإن أخفَوها، فجَعَلَ عملَهم الخفيَّ كالمحسوس الظّاهر الَّذي يُحَسُّ بالبصر؛ لظهورِه ووضوحِه عنده تعالى[1]، مع ما في ذكر الاسم من الوعيد الشّديد، فإنَّ ذكرَ البصير يدلُّ على الرّقابة الإلهيَّة للعباد.

تنزيلُ الأعمالِ الخَفيَّةِ منزلةَ الظّاهرة، والتَّنبيهُ على الرَّقابةِ الإلهيّة

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأولاد والبَنين:

الأولادُ: جمعُ ولدٍ، ويشمل الذَّكَر والأنثى[2]، والمولودُ يكون ذكرًا أو أنثى. أمّا لفظُ البَنينَ فهو جمعُ ابنٍ، ويَقتصِرُ على الذّكور فقط، فاللَّفظُ خاصٌّ بالذّكور من الأبناء، فلفظُ (الأولاد) أعمُّ من لفظِ (البنين). وعبَّر بالأولادِ في قولِه تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾؛ ليشملَ نفيَ نفعِ البَنينَ والبناتِ دون الاقتصار على البَنينَ وحدَهم.

(الأولادُ) كلمةٌ تَشمَلُ الذُّكورَ والإناث، و(البَنون) لفظٌ خاصٌّ بالذُّكور

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 518.
(2) الفيُّومي، المصباح المنير: (ولد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"